

المغرب

أوروبا في سورية

حياة المرء سنسنة مختلف حلقاتها بين سوداء وبيضاء يحكم قبل أن يستامن ليبيض النياي
يتوقى سودها فيذخر قوة ومنعة ولا يقف إذ ذاك حائراً أمام الشداد قانطاً فتعمرأ بل
تسبحاً أبداً ومتأهباً لنكافحة والنضال.

وناموس الأفراد يشل الأمم والمالك كبيرها وصغيرها فما من دولة إلا وكان لها من
دهرها يومان يوم لها ويوم عليها. هذه صيرت فاعتبرت وفازت وتذك لم ترعو فتلاشت
فخلفها من هو أقوى منها سنة الله في خلقه.

اعتبر ذلك بدولتنا العنية التي اجتاحت الممالك ودوخت الأمصار فاستقامت واستأمنت
ولم تأهب لمقاومة غدرات الزمان فقامت في وجهها الأمم التي كانت خاضعة لها
وكانت صدمة بل صدمات بين الشرق والغرب آلت إلى تقهقرنا وما كنا قبل لنعرف
لنتقهقر معنى وفقدنا الثريم ومندينا والفلاخ وبسرايينا في عهد المنطان سنيم الثالث
واعطر محمود الثاني للتسليم بمصر شند علي. وكانت أيام عبد العزيز فتضععت
الدولة بتداخل الأوربيين وشق البغار عصا الطاعة وفازوا باستقلالهم. وكان ما كان في
أيام عبد الحيد من احتلال الدول لهذه الجزيرة وتذك الولاية واستقلال هذه الإمارة

وانسلاخ تلك حتى لم يبق من مملكة سليمان كبير سوى شبح حاول الأحرار أن
يجموه فاقنعوا الدستور من أعين طاغية آخر القرن التاسع عشر وعملوا إلى
الاحتفاظ به متخذين من الاتحاد الثلاثي سداً ووعناً ففاجأهم إحدى الصديقات بسنخ
البوسنة والمهرسك فصاحوا وزمجروا ولكن لم يعبروا فداهتهم الصليقة الثانية باحتلال
طرابلس الغرب لا اعتقادها أن الدولة العلية لم تتجاوز مع النساء حد الجمعية وهي
قريبة منها فيما عاها تفعل الآن مع إيطاليا وهي بعيدة عنها. كل ذلك وساسة البلاد
لا يعتبرون بل لم يزالوا ينتظرون حدوث عجيبة لا اعتقادهم أن من أقسم على صريح
صلاح الدين لا يلبث أن يمتشق حسامه ويضرب به أعداء الإسلام الضرية القاضية.

وكأنني بهم أمام اخنة الأخيرة واقفين متأمين لا يحسبون للآتي حساباً متوهمين أن أزمة
طرابلس الغرب هي آخر حلقة من سلسلة حياة الدولة فيحنون هذه العقدة ثم
يستأنون للدهر متعامين عن فتنات سياسة أوروبا القائمة بناموس بقاء الأفضل تاركين
البلاد عرضة لنحن باختلال أحوالها وجهل أهلها وفقد الأمن منها.

قنب صفحات التاريخ لا تجد بلاداً اجتاحتها صروف الدهر ونابتها خطوب الزمان
وكانت ميدان احتكاك المصالح فيها مثل بلاد الشرق. ولنضرب صفحاً عن العقد
الكثيرة التي لم تحل فيها بد كالبانيا ومكدونية والعربية ولننعم النظر فيما هو أقرب إلينا
أي سورية وفلسطين ففيها من مصالح الدول ما لا يوجد في غيرها من الولايات وبيانا
لذلك نقول:

كان نفوذ الدول الأوروبية في سورية قليل جداً قبل أواسط القرن الثامن عشر. وأبرمت
معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ فانتفح باب واسع لذلك النفوذ وكانت الجنعيات الدينية
في ذلك العهد تنقل إلى الشرق مدينة الغربيين فحيت فرصة ملاتمة وغرت سورية

٣٠٠٠٠٠ فرنك. ثم أخذ الميل ينمو في فرنسا لتوسيع نطاق أعمالها وتعزيز مكانتها فأسس إثر ذلك الاتحاد الإسرائيلي^١ الذي يوزع على المدارس السورية على اختلاف أصبغتها أربعين ألف فرنك.

ولم يكن لفصل الكنيسة عن الحكومة في فرنسا أدنى تأثير في حال المدارس السورية لأن الأحرار والمحافظين لم يحتفوا في أمر الاحتفاظ بمعاهد فرنسا الحيرية والعينية في الشرق بل رأينا الأحرار كثيراً ما يوجهون إلى الحكومة الإفريقية قوارص الكلام في مجلس الأمة لتخفيفها عن خصومها في الشرق أي ألمانيا وإيطاليا.

وفي سنة ١٩٠٠ تحسنت ميزانية هذه المدارس إذ جعلها مجلس النواب بأكثرية الأصوات ٨٥٠٠٠٠ فرنك ما عدا نفقات مدارس الرهبان الإفريقية التي لا تزال في نظره تافهة لمصالح الدولة وقرر بذل الجهود لنشر التعليم المدني وتقويته في أملاك الدولة العلية.

عنى أن نجاح ألمانيا وإيطاليا الباهر في الشرق وسرعة انتشار نفوذهما حملا الحكومة الإفريقية على انتهاج خطة أكثر حزمًا وثباتاً مع توسيع ميزانية المدارس الشرقية بصورة قانونية بحيث لا تبقى عرصة للأخطار والتضعف فحولت تلك الميزانية العرضية إلى بند خصوصي أدخلته في ميزانية نظارة خارجيتها لسنة ١٩١١ تحت ثمرة ٢٢ بموجب هذا البند ينفق مليون فرنك على المعاهدة الإفريقية في سورية وفلسطين ليوزع على الطريقة الآتية:

٤٥٠٠٠٠ فرنك لمدارس الرهبان منها ٣٠٠٠٠٠ لمدارس العلية و ٦٠٠٠٠٠ لمدارس الوسطى و ٣٦٠٠٠٠٠ لمدارس الابتدائية.

و ٣٨٣٠٠٠٠ فرنك لندارس المدنية منها ١٥٧٠٠٠٠ لندارس العنبا و ١٣١٠٠٠٠ لندارس المتوسطة و ٩٥٠٠٠٠ لندارس الابتدائية.

و ٤٥٠٠٠٠ فرنك تنفق على مدارس مختلفة و ١٢٢٠٠٠٠ على المعاهد الطبية وتأخذ المعاهد المدنية علاوة على ذلك ١٧٠٠٠٠٠ فرنك مساعدة من جمعية البعثة اللادينية (العلمانية) التي أسست سنة ١٩٠٢.

فما ذكر يبدو لنعيان أن فرنسا تسعى سعياً حثيثاً في تحسين مركزها في سورية ولا تبخل بالمال في سبيل ذلك. ونعتقد أنها قد لا تكفي بمنون فرنك لازدياد نفوذ ألمانيا وإيطاليا اللتين تمدان يديهما إلى اقتلاع حماية الكاثوليك في الشرق الأدنى من يدهما. ولا شك أنها لا تتوقف عن كل ما من شأنه اخفاضة على اسم الجمهورية وشرفها.

أما إنكترا فإنها قد رافقت فرنسا في عمل نقل المدينة الغربية إلى سورية وفلسطين. وكان المبشرون من الإنكليز ينشرون في المدن الكبرى وفي ربوع لبنان حتى أقصاها وينشرون المدارس والكنائس والمستشفيات للمرضى فعمت اللغة الإنكليزية وراجت تجارة إنكترا وعظمت المنافسة بين النفوذ الإنكليزي والفرنساوي. على أنا لا ندرى ما تنفقه الحكومة الإنكليزية على مدارسها ومعاهدها الخيرية في سورية أما فلسطين فقد عرفنا من أوثق المصادر أنه ينفق عليها أربعمئة ألف فرنك وإنكترا في سورية أضعاف ما لها في فلسطين من المعاهد الخيرية وغيرها.

ودخلت النمسا سورية بعد إنكترا وفرنسا لاستغلالها عنها بالبنقان حيث كانت تسعى جهدها بتعزيز مركزها والبنقان مركز نفوذها دينياً وسياسياً. غير أنه لما رأت ما أحرزته إنكترا وفرنسا من النجاح الباهر في سورية نوت من مناوأقمتنا لفتح لتجارقتها سوقاً جديدة وفازت بذلك بهمة جمعية الفرنسييسكان الغنية التي تنشر النفوذ النمساوي بهمة

لا تبارى فتشئ المدارس والمستشفيات للنرضى وبيوت العجزة وتجري الحفريات الأثرية وتبناح الأماكن الشئنة بالنظر إلى تاريخها المقدس.

ولم تتسكن من الوقوف على كية المبالغ التي تنفقها الحكومة النسائية في سورية وفلسطين على مدارسها ومعاهدها الخيرية لإبقائها ذلك في طي الكتمان إنما ترك للقارئ تقدير ذلك متى علم أن النساء تنفق على دار الغرباء وحدها في القدس ١٢٠٠٠ كرون وذلك بموجب ميزانية وزارة خارجيتها وأعف إلى ذلك الإعانات العديدة التي يمد بها الأهالي جمعية الفرنسييسكان وما يدفعه الإمبراطور فرنسيس يوسف من ماله الخاص. وهذا ما لا يمكن معرفة حقيقته.

أما إيطاليا فإنها بعد اتحادها سنة ١٨٦١ فقد وجهت أنظارها إلى الشرق أسوة بغيرها من الدول الأوروبية. وكانت الحكومة إذ ذاك فقيرة فخصصت في ميزانيتها اعتماداً زهيداً لا يتجاوز أربعين ألف فرنك إعانة لكل المدارس الإيطالية في الشرق.

وفي سنة ١٨٧٠ تضعضت فرنسا في حربها مع بر روسيا فطلبت إيطاليا أن تأخذ على عاتقها حماية الكاثوليك فتم تقبل فرنسا أن تنازل عن حقوقها. وبلغت المنافسة من هذا الوجه معظمها سنة ١٨٨٣ فكانت إيطاليا تنج بطنب حماية المبشرين الإيطاليين وفرنسا تعارضها لا اعتقاد الاثنتين أن في هذه الحماية ما يجعل لهما شأنًا عظيمًا في هذه البلاد.

ولما كانت إيطاليا تبغي إيصال نفوذها إلى أقصى درجاته فتحت اعتماداً في ميزانيتها لندارس الشرقية لسنة ١٨٨٣ - ١٨٨٤ قدره ثمانون ألف ليرة. وما كان هذا المبلغ ليحب عظيمًا لو لم تكن مالتها إذ ذاك في حالة يرثى لها. لكنها لم يتسنى لها مع ذلك حماية المبشرين الإيطاليين فقررت إنشاء عدد كبير من المدارس المدنية وخصصت لهذه الغاية سنة ١٨٨٧ إعانة سنوية قدرها مليون ونصف من الفرنكات. غير أنها لم تفلح

في هذا المعنى لما يقتضيه التعنيم المدني من النفقات الباهظة ولعدم تمكنها من إيجاد معلمين لهم خبرة كافية للقيام بمثل هذا العمل. فعادت تحاول سلب حقوق فرنسا بحماية الكاثوليك وأسست لهذه الغاية في فلورنسا جمعية جنسية لحماية المبشرين الطليان فاضطرت فرنسا أن تنازل عن بعض حقوقها وانفقت مع إيطاليا في سنة ١٩٠٥ على أن المعاهد وكان لهذا الفوز السياسي الباهر تأثير سيء في فرنسا اضطرب له الرأي العام أيضا اضطراب.

ولم تكن إيطاليا بعد فوزها على فرنسا لتكتفي بالمليون والنصف من الفرنكات لأجل مدارسها فجعلت كل سنة تخصص مبالغ أخرى لمدارس الحكومة ومدارس الرهبانات التي أنشأها الإكليريكيون المطرودون من إيطاليا بأمر الحكومة. وفي الخامس من تموز سنة ١٩٠٥ صادق مجلس النواب على زيادة ميزانية المدارس السورية أربعمئة ألف فرنك فأصبحت نحو مليونين ادخل منها في ميزانية نظارة الخارجية ١٣٥٠٠٠٠ فرنك وفي ميزانية لجنة الاستعمار ٥٥٠٠٠٠٠ وتقرر توزيع المبلغ من قبل نظارة الخارجية بمعرفة نظارة المعارف.

ولما انفتحت ألمانيا إلى الشرق كانت الدول قد رسخت أقدامها في سورية وفلسطين. على أن ذلك لم يمنعها من بسط نفوذها ونشر لغتها بسرعة لا توصف شأنها في كل حالها مع الدولة العنية. وجعلت تخطو إلى الأمام بقدوم ثابتة زاعمة أنها مدعوة للقيام بعمل حيوي لأن الحياة والتاريخ يدعوانها لتكون صلة التواصل بين الشرق والغرب ومرشدة روحية للشرقيين. وما من ينكر عنيها أنها تقوم بهذا العمل أحسن قيام فما برحت تنقل إلى الشرق ما اكتسبه من الغرب ومن المدينة بواسطة عمال طليان وعسكريين وعلماء وأساتذة ومعلمين ومهذبين الخ.

ولم يفتها أن حماية الكاثوليك في الشرق كانت أعظم الأسباب الآيلة إلى تعزيز مركز فرنسا فأخذت تسعى لنحصول على حقوق حماية الكاثوليك الألمانين وأول عمل قامت به لنيل مآربها تأسيس جمعية فلسطين وعهدت إليها بإدارة المعاهد الألمانية الشرقية. وكانت بعد ذلك سياحة الإمبراطور في بلاد الشرق فقال وزير خارجية ألمانيا في مجني الأمة نحن بعيدون عن فكرة حماية كل المسيحيين في الشرق لكن حماية الكاثوليك الألمان من حقوق الإمبراطور دون منازع. ولم تعارض فرنسا بل تنازلت عن حقوقها لألمانيا.

وفي هذه السنين الخيرة تمت أعمال ألمانيا نمواً غريباً إذ أُنست كبراً من المدارس الابتدائية وعدة مدارس عالية ومدرسة إكنيريكية في القدس وغيرها من صناعية ومستشفيات وهيكل معتمدة في كل ذلك على الجمعيات الكاثوليكية والإنجينية الألمانية وعلى النجان الجنسية التي تستمد قوتها من الاتحاد النسائي العام. وحذت الحكومة حذو إمبراطورها الحكيم فقدمت الإعانات للجمعية على اختلاف المذهب لتبعد عنها روح المنافسة المضرة بالمصالح الوطنية. وما عدا ذلك فقد فتحت اعتماداً في ميزانيتها قدره ٨٥٠٠٠٠٠٠ مارك ينفق على معاهدها في سورية وفلسطين بمعرفة وزارة خارجيتها.

ولم تغفل روسيا عن مساعي الدول الأوروبية في سورية وفلسطين ونجاح الجمعيات البشرية. ومكان الشرق الأرثوذكسي قد اعتاد من القديم أن يعتبر روسيا حامية له في أيام الخن. واعترفت لها الدول بذلك بواسطة معاهدات دولية كانت نتيجة حروب كثيرة سالت فيها الدماء أثماراً. فلم يسعها إلا الإقدام على مباراة الدول الأوروبية بتأييدها مركزها في الشرق. فأست لهذه الغاية سفارة روحية في القدس ما لبثت أن

باشرت سنة ١٨٤٧ بفتح المدارس وإنشاء المعاهد الخيرية وفي سنة ١٨٥٨ بعد انتباه حرب القرم أقامت في المدينة نفسها أقامت في المدينة نفسها قسلاً لها.

عنى أن السفارتين لم يكن في ومعهما مباراة الجمعيات الأجنبية بالنظر لحرج المركز الذي لا يسمح لشئى الحكومة أن يتوسعوا في العمل وأدت الحاجة إلى تأسيس جمعية خصوصية غير مفيدة بمركز رسمي نظير الإرساليات الأوروبية تطلق يدها في العمل بدون خوف وهكذا كان.

ففي سنة ١٨٨٢ وضع الأساس لجمعية فنسطين الأرثوذكسية التي أُطلق عليها سنة ١٨٨٩ إمبراطورية لتسنى لها جمع الإحسان من الشعب الروسي الذي يعتقد أن الإمبراطور لا يهب اسمه إلا لما فيه المنفعة للوطن. وباشرت الجمعية بإنشاء المدارس وصادفت صعوبات شتى لم تنق مثلها الجمعيات الأوروبية لأن المعاكسات بدت من حيث لم ينتظرها أحد أي من الإكثيروس اليوناني الذي يكره الروسيين فسهمت لهم سبل الوصول إلى الأراضي المقدسة وأقامت لهم الأبنية في القدس الشريف وغيرها وأنشأت عدة مستوصفات لهم ولتلاميذ مدارسها كل ذلك والخزينة الروسية لم تنفق بارة واحدة بل كان الشعب الروسي الساذج مصدر هذه النفقات الوحيد.

وفي سنة ١٨٩٢ فحصت كل أعمال الجمعية وما أنتجته خلال العشر سنوات التي مضت عني تأسيسها فثبت أنها نجحت وأفادت الزوار كثيراً وآوت بعض اولاد الأرثوذكسين وأمدقم بالمساعدات الطبية وحتى لها أن تكسب ثقة الحكومة الروسية ولما كان عدد الزوار يزداد من سنة إلى سنة والمدارس لم تسد كل الحاجة والإحسانات لا تقوم بكل ما تطلبه التحسينات الحيوية من النفقات طلبت الجمعية من الحكومة إعانة قدرها ٦٠٠٠٠٠٠ روبل أي ٨٠٠٠٠٠ ليرة وأيد طلبها رئيسها الغرندوق سرجيون

وقد لنحكومة ضمانات لهذا الدين كل ما تمكنه الجمعية من عقار وغيره ما تبلغ قيمته مليوني روبل. فرفض وزير المالية (فيت) طلبه لتضعص المالية في ذلك الحين. ولم يبق للجمعية إلا أن تتابع عنها متكيفة بالإحسان من الشعب الروسي ولكنها عادت سنة ١٨٩٥ فطلبت من الحكومة أن تقرضها أربعة آلاف ليرة لتفقهها على المدارس السورية التي أنشأها بطنب من البطريك الأنطاكي سيريدون ففتحت لها الحكومة اعتماداً بالقينة المذكورة وأدخلته في ميزانية الخرج المقدس على أن تفقد على السفارة الروسية في القدس.

ولما لم يكن في الإمكان متابعة العمل حسبنا تقتضيه الأحوال بدون مساعدة كبيرة طلبت من الحكومة ثمانين ألف ليرة تقبضها دفعة واحدة لتحسن أمورها وتستوفي من الاعتماد المذكور أعلاه في مدة عشرين سنة. فقبلت الحكومة بذلك وتكون الجمعية لم يحصل على مطنوبها إلا بعد سعي عشر سنوات وبشرط إيفاء المبلغ أقساطاً سنوية. والأمر الغريب أن الحكومة لم تقدها المبلغ من مال الخزينة بل من ريع ملاك بسرابيا التي تديرها الحكومة ووفت الجمعية بوعددها. لكن الحرب اليابانية قننت من مداخيل الإحسان فلم تعد تستطيع وفاء دينها فاجلته إلى ستين ثم إلى ثلاث وأخيراً اضطرت إلى عدم الاحتفاظ بكل المعاهد التهذيبية والخيرية التي أنشأها وعمرحت لنحكومة بأنها تضطر والحالة هذه إلى حصر أعينها في دائرة ضيقة فتهدم ما بنته في سنين عديدة. فارست الحكومة ففتش في سورية وفلسطين فحسوا أعمال الجمعية وشهدوا بما تؤديه من المنافع الجمة لنزوار الروسيين وللمدارس الأرثوذكسية فقرر إيجاد مبلغ يدخل بصورة قانونية إلى نظارة الخارجية فتفقد الجمعية على تحسين المدارس في سورية وفلسطين بحيث تفي باحتياجات الأهلين نظير المدارس الأوروبية في هذه البلاد. ومن هنا

نستنتج أن الجمعية الفلسطينية الروسية أنشأت معاهدها في هذه البلاد دون أن تساعدنا الحكومة بشيءٍ بعكس ما رأيناه في أمر المدارس الأوربية الأخرى. وأنها لم تحصل عني الوعد بالمساعدة المنظمة القانونية إلا بعد مضي ٣٩ سنة عني تأسيسها. هذا شيءٌ عن حالة أوروبا في سورية بسطته للقارئ وله أن يستنتج ما عسى أن يكون مستقبل هذا الوطن الخروب إذا لم تبادر الحكومة إلى إزالة كل ما من شأنه حمل الدول الأوربية عني التدخل في شؤوننا. وما هي إلا فاعنة ذلك عن شاء المولى الكريم وهو حسينا ونعم الوكيل.

وطني

الينن وسكانها

٣

خيرات الينن

أجمع جغرافيو العرب أن الينن الخضراء من أخصب القطار وأكثرها مرافق وخيرات حتى قال القرماني أن أهلها يررعون أربع مرات في السنة ويحصد كل زرع في ستين يوماً. وقال بعضهم:

الينن ثلثة وثلاثون منبراً قديمة وأربعة محدثة وصنعاء أطيب البندان وهي طيبة الهواء كثيرة الماء يشنون مرتين ويصيفون مرتين وأهل الحجاز والينن يمطرون الصيف كند ويحصبون في الشتاء فيطر صنعاء وما والاها في حزيران وتموز وآب وبعض أبنول من الزوال إلى المغرب ينقى الرجل الآخر منهم فيقول عجل قبل الغيث لأنه لا بد من المطر في هذه الأيام.